إذا نظرنا في هذه الأرض.. فسنرى فيها القمم الشامخة.. والفيافي الواسعة 00والوديان السحيقة ..ونرى أيضا النسور التي تحلق في السماء ..وتعانق الغيوم ..وتزاحم النجوم 00فى المقابل نرى من يزحف في بطون الأودية , أو يدفن رأسه في التراب كالنعام 00واذا نظرت في الحياة.. فسترى قيما عالية.. وأخلاقا رفيعة00 وفى المقابل.. ترى سفا سف دنيئة.. وقيما وضيعة ..والناس كالطيور.. منهم من يحلق هنا وهناك.. ومنهم من يلتصق بهذه أو تلك

قلبي يحدثني ألا يليق به *** رضا بجهد ذليل اللب يرضيه

قد ثار ثائر نفس عز مطلبها *** أو طار طائر لب في مراقيه

كالنسر لاحا جب للشمس يحرقه *** ولا الصواعق والأرواح تفنيه

ليس الطموح إلى العلياء من سفه *** ولا السمو إلى حق بمكروه

إن لم أنل منه ما أروى الغليل به *** قد يحمد المرء ماء ليس يرويه

والقانعون بما قد دان عيشهم *** موت فان هدوء القلب يرديه

يا قلب يهنيك نبع كله حرق *** إلى الغرائب مما عز ساميه

قال الإمام ابن الجو زى رحمه الله : وتلمح سير الكاملين في العلم والعمل.. ولا تقنع بالدون ..فقد قال الشاعر

ولم أر في عيوبا الناس شيئا *** كنقص القادرين على التمام

من هم سكان القمم ..؟..هل هم بشر كسائر البشر...؟.. أم هم أناس يعيشون على كوكب آخر.. ومن جنس غير جنس البشر ..؟

إن سكان القمم معاشر الأحبة.. أناس مثلنا ..قريبون منا ..يعيشون على هذه الأرض بأجسامهم.. لكن هممهم وعزائمهم تحلق في السماء..سكان القمم لا يرضون لأنفسهم من كل شيء إلا أحسنه ..ومن كل أمر إلا أتمه و أجمله ..وقد قيل قديما :قدر الرجل على قدر همته..فمن كان عالي الهمة ..كان عالي القدر..فبادر يا أخي الحبيب ولا يقعد بك العجز عن المكرمات.. وتأمل سير السابقين.. فإنها للهدى منارات.. حاول أن تكون من سكان القمم.. وابذل في تحصيله كل غال ورخيص.. ولا تدخر في ذلك أي نفيس..

لكل مجد مكافأة تليق بمقامه..فمن جد في العلم كوفىء باحتياج الناس إليه ..ومن جد في بذل المعروف كوفىء بثناء الناس عليه ..ومن كان همه ما يأكله كان قيمته ما يخرجه ..أين طلاب المعالي ؟..أين أصحاب الهمم العوالى ؟..أين من يحب الله صنيعهم ويبارك مسيرهم ؟ ..لا يسأل الكثير إلا من كان عقله يفكر بالكثير..ولا يطلب العظيم إلا من كانت نفسه تسمو لكل عظيم ..

إذا غامرت في شرف مروم *** فلا تقنع بما دون النجوم

فطعم الموت في أمر حقير *** كطعم الموت في أمر عظيم

إن حياتك مغامرة كبيرة ..وان لحظات عمرك مباراة خطيرة ..فإياك أن تخرج منها خاسرا.. قبل أن تبنى لك بيتا في الجنة ...روى الإمام مسلم في صحيحه أن أبا بكر رضي الله عنه قال ..قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من أصبح منكم اليوم صائما ؟ قال أبو بكر أنا ..قال فمن تبع منكم اليوم جنازة ؟ قال أبو بكر أنا ..قال فمن أطعم منكم اليوم مسكينا ؟ قال أبو بكر أنا ..قال فمن عاد منكم اليوم مريضا ؟ قال أبو بكر أنا ..فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ..ما اجتمعن في امرىء إلا دخل الجنة)..وعند مسلم أيضا من حديث أبى بكر رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (من انفق زوجين في سبيل الله نودي يا عبد الله هذا خير ..فمن كان من أهل الصلاة دعي من باب الصلاة .. ومن كان من أهل الجهاد دعي من باب الجهاد ..ومن كان من أهل الصدقة دعي من باب الصدقة ..ومن كان من أهل الصيام دعي من باب الريان ..فقال الصديق رضي الله عنه: يا رسول الله ما على احد يدعى من تلك الأبواب من ضرورة.. فهل يدعى احد من تلك الأبواب كلها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : نعم وأرجو أن تكون منهم) ..قال الله تعالى (سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ) (الحديد:12)

إن المكارم لا تحصل بالمنى *** لكن لها بالتضحيات سبيلا
فلكم سما للمجد من أجدادنا *** بطل أقام على السمو دليلا
فسل المعالي عن شجاعة خالد *** وسل المعارك هل رأته ذليلا
وسل الحضارة إن رأيت بهائها *** عمن أنار لهديها القنديلا
وسل المكارم والمعالي هل رأت *** من بعدهم في ذا الزمان مثيلا
هذى المكارم عندهم كبداية *** لسلوك درب ما يزال طويلا
في الأرض مجدهم ولكن قلبهم *** لجنة الفردوس رام رحيلا
وخذ المكارم لا تخف أعبائها *** عبء المكارم لا يكون ثقيلا

عن أبى ذر رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (لا تحقرن من المعروف شيئا ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق) ..رواه مسلم .. روى أن أعرابيا سال أناسا من أهل البصرة : من سيد القوم في بلدكم ؟ فقالوا الحسن أي البصري ..فقال بم سادهم ؟ قالو ا..احتاج الناس إلى علمه.. واستغنى هو عن دنياهم ..

سكان القمم أبعد ما يكونون عن زخارف هذه الدنيا وبهرجها ..الهم الأكبر لسكان القمم هم الآخرة ..أما الدنيا فقد استصغروا متاعها ..واحتقروا نتائجها ..وترفعوا عن الاستباق فيها ..فتحرروا من قيودها وهمومها ..يقول الحسن رحمه الله : (من نافسك في دينك فنافسه ..ومن نافسك في دنياك فالقها في نحره)...روى الترمذي عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (من كانت الآخرة همه ..جعل الله غناه في قلبه .. وجمع له شمله.. وأتته الدنيا وهى راغمة ..ومن كانت الدنيا همه.. جعل الله فقره بين عينيه ..وفرق عليه شمله.. ولم يأته من الدنيا إلا ما قدر له) ..انه وعيد من الله جل جلاله لمن كانت الدنيا أكبر همه ..فهو مقبل عليها بكليته ..يجمع حطامها في نهم لا ينقضي .. منشغل بذلك عن الآخرة ..فمن كانت هذه حاله.. عوقب بشتات القلب ..فلا يزال لاهثا وراء المال والمناصب والشهوات ..يعب منها لكنه لا يشبع ولا يرتوي ولا يكتفي ..بل يظل في طلب المزيد ..غافلا عن أنه لا يأتيه إلا ما كتب الله له من الرزق ..وان حاله هذا هو عين الفقر ..حيث لا تنتهي حاجته.. ولا يحصل له الرضا بما جمع من المال.. وهذا معنى (جعل الله فقره بين عينيه)..

وفى المقابل حال الرجل الصالح الذي جعل الآخرة همه ..فهو في سعى دائم لتحصيل الحسنات ..والوصول إلى مرضاة رب الأرض والسماوات ..مع حسن توكله على الله ..فهذا يجمع الله له أمره.. ويرزقه القناعة.. والرضي ..وغنى النفس ..ويبارك له في ماله.. وصحته وأولاده..وهذا هو الغنى الحقيقي ..يقول الإمام ابن الجو زى رحمه الله (يا هذا حب الدنيا أقتل السم ..وشرورها أكثر من النمل) وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال (والله ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم إصبعه في اليم فلينظر بم يرجع) رواه مسلم ..وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مر بالسوق والناس حوله فمر بجدي أسك ميت فتناوله فاخذ بأذنه ثم قال : أيكم يحب أن هذا له بدرهم ؟ فقالوا ما نحب انه لنا بشيء ..وما نصنع به ..فقال أتحبون انه لكم ؟ قالوا والله لو كان حيا كان عيبا فيه..لأنه أسك.. فكيف وهو ميت ..فقال : فو الله للدنيا أهون على الله من هذا عليكم) رواه مسلم ...وتلاحظ يا أخي الحبيب في هذه الأحاديث تحقير شأن الدنيا وتهوين شأنها بجانب شان الآخرة ..فنعيم الدنيا قليل زائل يشوبه الكدر ..إذا سر فيها المرء أمر ساءته أمور ..أما نعيم الآخرة فنعيم كله لا نكد فيه ولا أحزان ..وقد كان صلى الله عليه وسلم الأسوة و القدوة في نظرته إلى الدنيا.. فلم يركن إليها ولا تعلق بها ..بل كان شأنه فيها كشأن الراكب المسافر الذي استظل في طريقه تحت ظل شجرة ثم قام يواصل سيره ..فالدنيا أشبه بتلك الاستراحة العارضة ..وكما أن المسافر ليس له هم إلا الوصول إلى غايته.. وهى منتهى سفره ..فكذلك العاقل الموفق في الدنيا ..لا يتعلق بدنيا عارضة زائلة .. منشغلا عن النعيم الخالد في الآخرة

فلو كانت الدنيا جزاء لمحسن *** إذن لم يكن فيها معاش لظالم
لقد جاع فيها الأنبياء كرامة *** وقد شبعت فيها بطون البهائم

وقال آخر: تمتع من الأيام إن كنت حازما *** فانك فيها بين ناه وآمر

إذا أبقت الدنيا على المرء دينه *** فما فاته منها فليس بضائر

فلا تزن الدنيا جناح بعوضة *** ولا وزن رق من جناح لطائر

فلم يرض بالدنيا ثوابا لمحسن *** ولا رضي الدنيا عقابا لكافر

الأمة الإسلامية تواجه اليوم عدوا شرسا.. كشر عن أنيابه ..واظهر ما كان مستورا في فؤاده ..هذا العدو لا يمكن أن يواجه بأناس ذوى همم ضعيفة ..ولا بأناس تعلقوا بدنياهم ..لا يكسر هذا العدو إلا سكان القمم ..لكم أضر بنا غياب الزهد عن حياتنا ..فالزهد في الدنيا ..من أهم مقومات الصراع بين المسلمين وأعدائهم.. ومواجهة المكائد والمؤامرات التي يتعرضون لها الآن ..وان من الغفلة القاتلة أن يظن المسلمون أن عدوهم غافل عنهم ..فضلا عن أن يتوهموا أنه صديق لهم.. إلا إذا تصوروا أن الذئاب والنمور تصادق فرائسها ..إن عدونا يرقب بحذر ويقظة وتنمر صحوة المسلمين ..مع أن أصحاب الصحوة لم يسلموا من بنى جلدتهم .. وان عدونا يمد عينيه بطمع وشره واحتيال.. إلى ما تبقى في أيدينا من ثروات ..فهو لا يرضى لنا عودة إلى ديننا تبعث فينا الحياة والقوة ..وتفتح أعيننا على مصالحنا .. ما انه لا يرضى للغافلين منا.. أن يهنئوا بما في أيديهم من ثروات ..فهل نفيق الآن ؟ ونزهد في الترف والدعة والراحة.. التي لا تثمر إلا الخنوع والضعف.. ونعمل لنرد عن الأمة غائلة العدو.. ونقطع أطماعه فينا ..أم نبقى في ترفنا وترهلنا حتى تأكلنا الذئاب ؟... من أشد ما تصاب به أمة من الأمم أن يكون أفرادها ذووا همم ضعيفة.. وعزائم واهنة.. وتطلعات قاصرة ..يرى أحدهم نفسه قزما أمام المتغيرات الكبيرة ..والتحولات التاريخية.. فلا يفكر في التغيير ..ولا البدء في مشاريع مستقبلية..ومن هذا وضعه.. كيف يرجى له الشفاء.. إذا كان اعتقاده أنه لا يشفى .. ذلك انه أسير تربية ذليلة ..لم يقم يوما بعمل مستقل.. أو بعمل تعاوني كبير .. لم يتدرب يوما على القيادة ..فإذا فاجأه أمر تقوقع وانزوى لأنه لا يملك الخبرة لإدارته ..إن ارض الله واسعة لمن يريد الانطلاق.. ولمن يريد تأسيس أعمال كبيرة..والطاقات متوافرة ولكنها بحاجة إلى عزمة أكيدة.. وثقة بوعد الله عز وجل ..ولقد بعث الله موسى عليه السلام.. ليخرج قومه من الذل والاستعباد.. إلى التمكين في الأرض.. والاسترواح بشرع الله ..ولكن نفوسهم كانت ضعيفة صغيرة ..لا تستطيع حمل هذا العمل العظيم.. وذلك لما ألفوه من العبودية لفرعون وملأه ..فتصاغرت نفوسهم.. وهانت عليهم ..حتى لم يعودوا يرون أنها جديرة بمرتبة الاستخلاف في الأرض ..لابد أن ينعتق الفرد المسلم من مثل هذه الأجواء التي تقيده وتشعره بضآلته .. وتشعره أنه جزء صغير من آلة ضخمة.. ومن عجلة تدور لا يستطيع الفكاك منها .. لابد أن يقتنع الفرد المسلم.. بأن عنده طاقات وقدرات.. يستطيع بها القيام بأعمال كبيرة ..إن معالي الأمور لا يبلغها إلا أصحاب الهمم العالية.. والعزائم القوية..فالجنة محفوفة بالمكاره ..قال ابن القيم رحمه الله (علو الهمة لا تقف دون الله تعالى.. ولا تتعوض عنه بشيء سواه.. ولا ترضى بغيره بدلا منه ..وأعلى الناس همة وارفعهم قدرا من لذته في معرفة الله ومحبته والشوق إلى لقاءه ..) قال الله تعالى (قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ((يونس:85) ..كان الأعرابي يأتي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يسأله حفنة من شعير قائلا يا محمد أعطني من مال الله فانه ليس مالك ولا مال أبيك ..هذه همة.. بينما همة ربيعة بن كعب.. همة فوق الشمس (عن ربيعة رضي اله عنه قال : كنت أبيت مع رسول الله.. فأتيته بوضوئه وحاجته فقال لي سل.. فقلت أسالك مرافقتك في الجنة.. قال أوغير ذلك .. قلت هو ذاك ..قال فأعنى على نفسك بكثرة السجود) رواه مسلم

حدث عن القوم فالألفاظ ساجدة *** خلف المحاريب والأوزان تبتهل

أين كانت تحلق همة ربيعة ؟ ..كانت تحلق في سماء رفيعة ..وقمم شاهقة ..وكما قال الإمام ابن القيم رحمه الله (فلله در الهمم .. ما أعجب شأنها.. وأشد تفاوتها.. فهمة متعلقة بالعرش.. وهمة هائمة حول الأنتان والحش)

سكان القمم جد في السلوك , نشاط في العمل , لا يعرفون التراخي والكسل ..ومن سنن الحياة أن الدنيا لا تعطى حصادها.. إلا لمن يزرعها , ولا جناها إلا لمن يغرسها ..سكان القمم لا ينغمسون في الترف وكثرة المباح ..قال ابن القيم رحمه الله: (قال لي شيخ الإسلام قدس الله

روحه في شيء من المباح : هذا ينافى المراتب العالية.. وان لم يكن تركه شرطا في النجاة , فالعارف يترك كثيرا من المباح برزخا بين الحلال والحرام)

سكان القمم سباقون إلى الخيرات.. مبادرون إلى القربات , لا يفرغ من خير إلا بدأ بخير بعده .. لا ينفض يده من عمل إلا وضعها في عمل آخر ..يفيد نفسه وينفع أمته ..قال أحد السلف: (إذا هممت بخير .. فبادر هواك لا يغلبك ..وإذا هممت بشر ..فسوف هواك لعلك تظفر)

سكان القمم يتعبون لبلوغ المعالي , ويقاسون المشقة للصعود في درجات الكمال ..لكنه تعب يعقبه فرح.. ونعيم لا شقاء بعده .. يقول ابن القيم رحمه الله (وقد أجمع عقلاء كل أمة.. على أن النعيم لا يدرك بالنعيم ..وأن من آثر الراحة.. فاتته الراحة ..وأن بحسب ركوب الأهوال.. واحتمال المشاق.. تكون الفرحة واللذة ..فلا فرحة لمن لاهم له ..ولا لذة لمن لا صبر له .. ولا نعيم لمن لا شقاء له.. ولا راحة لمن لا تعب له ..بل إذا تعب العبد قليلا.. استراح طويلا ..إنما تخلق اللذة والراحة والنعيم.. في دار السلام ..وأما في هذه الدار فكلا) القمم يسكنها العباد والزهاد والمجاهدون والعلماء والدعاة وطلاب العلم ..شمر لسكنى القمم.. السابقون من أنبياء الله.. وأصحابهم.. ومن سار على نهجهم ..إن السكنى في القمم هي الحياة التي من حرمها..فهو في جملة الأموات ..والنور الساطع الذي يسترشد به الغرباء في بحار ظلمات الدنيا ..وهى الشفاء الذي من فقده.. فقد أصابته جميع الأسقام ..وبها تكون اللذة التي من لم يظفر بها فعيشه كله هموم وآلام ..إذا هممت فبادر ..وان عزمت فثابر ..واعلم أن لا يدرك المفاخر من رضي بالصف الآخر ..يا طالبا للدعة أخطأت الطريق .. علة الراحة التعب ..إذا لم تكن أسدا في العزم ..ولا غزالا في السبق.. فلا تتثعلب .. من خاف ركوب الأهوال.. بقى عن إدراك الآمال .. من وجد الله فماذا فقد , ومن فقد الله فماذا وجد) متى صح الود منك فالكل هين *** وكل الذي فوق التراب تراب (
إذا اطلع الخبير على الضمير.. فلم يجد في الضمير غير الخبير..جعل فيه سراجا منيرا ..

سكان القمم في كل وقت يقل عددهم.. لكن يجل قدرهم.. حتى إذا ماتوا فهم أحياء ..فكم من أناس موتى.. تحيا القلوب بذكرهم .. وأناس أحياء تموت.. القلوب برؤيتهم ..قال ابن القيم (تفنى عظام الصب بعد مماته وأشواقه وقف عليه محرم)
وقال الفاروق عمر رضي الله عنه : لا تصغرن همتك.. فاني لم أر اقعد بالرجل.. من سقوط همته ..وقد قيل : المرء حيث يجعل نفسه ..إن رفعها ارتفعت..وان قصر بها اتضعت ..قال ابن الجو زى رحمه الله (وقد عرفت بالدليل.. أن الهمة مولودة مع الآدمي.. وإنما تقصر بعض الهمم في بعض الأوقات ..فإذا حثت ثارت .. ومتى رأيت في نفسك عجزا فسل المنعم ..أو كسلا فالجأ إلى الموفق ..فلن تنال خيرا إلا بطاعته ..ولن يفوتك خير إلا بمعصيته) ..وقال أيضا رحمه الله في صيد خاطره (قال الكلب للأسد يوما : يا سيد السباع.. غير اسمي فانه قبيح ..فقال له : أنت خائن لا يصلح لك غير هذا الاسم .. قال جربني , فأعطاه قطعة لحم وقال له احفظ هذه إلى الغد وأنا أغير اسمك..أخذ الكلب قطعة اللحم ..وبعد زمن جعل الكلب ينظر إلى اللحم ويصبر .. فلما غلبته نفسه قال : وأي شيء في اسمي.. وما كلب إلا اسم حسن.. وأكل اللحم ..يقول ابن الجو زى : وهكذا خسيس الهمة.. القنوع بأقل المنازل.. المختار لعاجل الهوى.. على آجل الفضائل ..فالله الله في حريق الهوى إذا ثار فانظر كيف تطفئه) المشكلة هي قناعة الشخص بالمستوى الذي هو فيه ..فإذا اقتنع بذلك.. فاعلم أن هذه هي أول خطوة في الانحدار ..إليك يا أخي الحبيب نماذج ممن سكنوا القمم .. فهذا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.. يقول عنه شقيق بن عبد الله : مرض عبد الله بن مسعود.. فعدناه ..فجعل يبكى.. فعوتب فقال : انى لا أبكى لأجل المرض فاني سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول ..المرض كفارة.. وإنما أبكيأنه أصابني على حال فترة.. ولم يصبني في حال اجتهاد ..فانه يكتب للعبد من الأجر إذا مرض.. ما كان يكتب له قبل أن يمرض.. فمنعه منه المرض ...والإمام الطبري جلس أربعين سنة..وهو يكتب كل يوم أربعين ورقة في التأليف ..وابن الأثير ألف كتبه الرائعة.. كجامع الأصول والنهاية في غريب الحديث ..بسبب أنه مقعد ..وابن القيم كتب زاد المعاد وهو مسافر ..والقرطبى شرح صحيح مسلم وهو على ظهر سفينة ..وشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله ..جل فتاويه كتبها وهو في السجن .. وابن الجو زى يتحدث عن نفسه ويقول (نظرت إلى علو الهمة فرأيتها عجبا.. وذلك أنني أروم الليل كل العلوم.. وهذا أمر يعجز العمر عن بعضه..وأروم نهاية العمل بالعلم.. مع

مطالعة التصانيف وإفادة الخلق ..وأروم الغنى عن الخلق.. والاشتغال بالعلم مانع من الكسب ..وها أنا ذا احفظ أنفاسي من أن يضيع منها نفس في غير فائدة) ..والإمام النووي رحمه الله وصف حياته لتلميذه ابن العطار.. فذكر له أنه كان يقرأ كل يوم اثنا عشر درسا على مشايخه شرحا وتصحيحا.. درسين في الوسيط , ودرسا في المهذب ,ودرسا في صحيح مسلم ,ودرسا في اللمع , ودرسا في إصلاح المنطق , ودرسا في التصريف ,ودرسا في أصول الفقه , ودرسا في أسماء الرجال , ودرسا في أصول الدين ,..قال وكنت اعلق على جميع ما يتعلق بها من شرح مشكل.. ووضوح عبارة.. وضبط لغة..وبارك الله تعالى في وقتي ...وهذا عبد الله بن المبارك ..نور مرو وجمالها ..ونجمها وهلالها ,يقول عنه محمد بن أعيل.. وكان صاحبه في أسفاره (كان ذات ليلة ونحن في غزاة الروم.. ذهب ليضع رأسه ليريني أنه ينام.. فقمت أنا برمحي في يدي قبضت عليه ووضعت رأسي على الرمح كأني أنام كذلك , قال فظن انى قد نمت فقام فاخذ في صلاته.. فلم يزل كذلك حتى طلع الفجر وأنا ارمقه , فلما طلع الفجر أيقظني وظن أنى نائم فقال يا محمد, فقلت انى لم أنم قال.. فلما سمعها منى ما رأيته بعد ذلك يكلمني.. ولا ينبسط إلى في شيء من غزاته كلها كأنه لم يعجبه ذلك منى لما فطنت له العمل ..فلم أزل أعرفها فيه حتى مات.. ولم أر رجلا أسر بالخير منه) ..عن القاسم بن محمد قال (كنا نسافر مع ابن المبارك فكثيرا ما كان يخطر ببالي فأقول في نفسي.. بأي شيء فضل هذا الرجل علينا ..حتى اشتهر في الناس هذه الشهرة ؟ .. إن كان يصلى إنا لنصلى ,وان كان يصوم إنا لنصوم , وان كان يغزو فانا لنغزو ,وان كان يحج إنا لنحج ..قال فكنا في بعض مسيرنا في طريق الشام ..فتعشى ليلة في بيت إذ طفىء السراج.. فقام بعضنا فاخذ السراج واخذ يستطلع.. فمكث هنيهة ثم جاء بالسراج ..فنظرت إلى وجه ابن المبارك ولحيته قد ابتلت من الدموع.. فقلت في نفسي بهذه الخشية فضل هذا الرجل علينا , ولعله حين فقد السراج وصار إلى ظلمة.. ذكر القيامة) ..وكان على بن الحسين يحمل جراب الخبز على ظهره بالليل ويتصدق به ويقول إن صدقة السر تطفىء غضب الرب .. قال عمرو بن ثابت لما مات على بن الحسين فغسلوه جعلوا ينظرون إلى آثار سواد بظهره فقالوا ما هذا.. فقيل كان يحمل جراب الدقيق ليلا على ظهره.. فيعطيه فقراء أهل المدينة ..

هذا الذي تعرف البطحاء وطأته *** والبيت يعرفه والحل والحرم

إذا رأته قريش قال قائلها *** إلى مكارم هذا ينتهي الكرم

وداود ابن أبى هند صام أربعين سنة.. لا يعلم به أهله ولا احد من الناس , وكان خبازا فيحمل معه طعامه من عند أهله فيتصدق به في الطريق ويرجع عشيا فيفطر معهم , فيظن أهل السوق انه قد أكل في البيت ويظن أهله انه قد أكل في السوق

سكان القمم من أكثر الناس تعرضا للفتن والبلاء , قال صلى الله عليه وسلم (اشد الناس بلاء الأنبياء .. ثم الأمثل فالأمثل) قال الإمام العلامة المناوى رحمه الله معلقا على هذا الحديث (ومن ظن أن شدة البلاء.. هوان بالعبد فقد ذهب لبه.. وعمى قلبه , فقد ابتلى من الأكابر مالا يحصى .. ألا ترى إلى ذبح نبي الله يحي بن زكريا ..وقتل الخلفاء الثلاثة ,والحسين وابن الزبير وابن جبير , وقد ضرب أبو حنيفة وحبس ومات بالسجن , وجرد مالك وضرب بالسياط وجذبت يده حتى انخلعت من كتفه .. وضرب الإمام أحمد حتى أغمى عليه , وقطع من لحمه وهو حي.. وأمر بصلب سفيان فاختفى .. ومات البويطى مسجونا في قيوده , ونفى البخاري من بلده) ويضاف على تعليق المناوى رحمه الله.. بان سجن شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله ومات في سجنه..وفعل ما فعل بتلميذه ابن القيم ..(كذا المعالي إذا ما رمت تدركها فاعبر إليها على جسر من التعب)

إن الجنة غالية.. لكنها محفوفة بالمكاره .. ومن رام السعادة.. تصدى لعبور جسر المشقة بالجد والاجتهاد ...

ينقسم الناس في سكنى القمم إلى أقسام ..

1- فمن الناس من يطلب المعالي بلسانه.. وليس له همة في الوصول إليها.. فهذا متمن مغرور ..

2- ومن الناس من لا يطلب إلا سفا سف الأمور وهم فريقان :

(ا) فريق ذو همة في تحصيل تلك الدنايا , فتجده السباق إلى أماكن اللهو.. ومغاني الغواني.. وهذا إن اهتدى إلى الحق.. فسيكون ذا همة عالية نفيسة ..كما قال صلى الله عليه وسلم : (الناس معادن خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا) رواه البخاري ومسلم ..

(ب) وفريق لاهم له .. فهو معدود من سقط المتاع .. وموته وحياته سواء .. لا يفتقد إذا غاب.. ولا يسأل إذا حضر ..

-3 ومن الناس من تسمو مطالبه إلى ما يحبه الله ورسوله .. وله همة عظيمة في تحصيل مطالبه وأهدافه ..وبين هذه الأقسام مراتب كثيرة متفاوتة ..قال ابن القيم رحمه الله (لذة كل أحد على.. حسب قدره وهمته.. وشرف نفسه .. فأشرف الناس نفسا ..وأعلاهم همة.. وأرفعهم قدرا.. من لذته في معرفة الله ..ومحبته.. والشوق إلى لقاءه.. والتودد إليه ..بما يحبه ويرضاه) .. ونرى اليوم من تفاوت الهمم أمرا عجبا .. فإذا استثنى الناظر في أحوال الناس.. أمر العامة.. واستثناؤهم واجب.. لأنه قد ماتت هممهم.. وقعدت بهم عن تحصيل معالي الأمور .. واطلع على أحوال الخاصة.. من الشباب والدعاة وطلاب العلم ..سيصاب بالدهشة لما يراه من فتور الهمة .. فمنهم من إذا قرأ ساعة في اليوم.. ظن انه أتى بما لم يأت به الأوائل .. ومنهم من تتغلب عليه زوجة وعيال فيقطع عامة وقته في مرضاتهم .. ومنهم من اقتصر في تحصيل العلم.. على سماع بعض الأشرطة.. وحضور بعض المحاضرات .. ومنهم من غلب عليه الركون إلى الدنيا.. والتمتع بمباحاتها .. تمتعا يفضى به إلى نسيان المعالي العلية .. وهكذا يندر أن تجد إنسانا استطاع أن يسكن القمم ..وان يعلو بهمته.. ويجمع شمله ويقصر من الاعتذارات والشكايات .. فتصبح حياته مثلا أعلى يحتذي به .. ولكن القليل هم الذين يستثمرون هممهم حق الاستثمار , ويحاولون أن يرتقوا بأنفسهم حق الارتقاء .. إن تحقيق كثير من الأمور.. مما يعده عامة الناس خيالا لا يتحقق , يستطيع سكان القمم بتوفيق الله لهم أولا.. وبهمتهم ثانيا , إنجاز الكثير من الأعمال التي يستعظم بعضها من قعدت به همته وظنها خيالا .. وأعظم مثال على هذا سيرة النبي صلى الله عليه وسلم , إذ المعروف عند أهل التواريخ أن بناء الأمم يحتاج إلى أجيال لتحقيقه .. لكنه عليه الصلاة والسلام استطاع بناء خير امة أخرجت للناس في اقل من ربع قرن من الزمان , واستطاعت هذه الأمة أن تنير بالإسلام غالب الأجزاء المعروفة آن ذاك , وجهاده عليه الصلاة والسلام وعمله وهمته العالية في بناء الأمة أمر معروف .. والصديق رضي الله عنه استطاع في اقل من سنتين أن يخرج من دائرة حصار المرتدين , ولم يمت رضي الله عنه إلا وجيوشه تحاصر أعظم إمبراطوريتين في ذلك الوقت , هذا وقد نهاه كبار الصحابة عن حرب المرتدين وظنوا انه لا يستطيع أن يقوم في وجه العرب كلهم .. ولكن همته العالية أبت عليه ذلك.. واستطاع أن ينجز ما ظنه الناس خيالا لا ينجز ... سكان القمم يعتمد عليهم.. وتناط بهم الأمور الصعبة .. وتوكل إليهم.. وهذا أمر مشاهد معروف , سكان القمم أحدهم يكون بمثابة فريق من الدعاة , يرفع الله به الدعوة درجات .. وقد قيل : ذو الهمة وان حط نفسه تأبى إلا العلو , كالشعلة من النار يخبيها صاحبها وتأبى إلا ارتفاعا .. سكان القمم قدوة في مجتمعهم , ينظر إلى حاله القاعدون وأنصاف الكسالى والفاترون .. فيقتدون بهمته.. ويرون ما كانوا يظنونه أمرا مسطورا في الكتب القديمة .. قد انتهى وعدم من دنيا الناس .. يجدونه واقعا متحققا في حياتهم , فيظل هذا الشخص رمزا للناس ومحل ضرب أمثالهم ...

أظنك يا أخي الحبيب تريد بعد هذا أن تكون من سكان القمم .. إن الارتقاء بالنفس أمر مطلوب , ويتأكد هذا عند عقلاء الناس ودعاتهم ومصلحيهم .. و أظنك منهم .. وهذه جملة أمور تساعدهم على ذلك :

أولا : المجاهدة .. فبدونها لا يتحقق شيء .. قال الله تعالى) وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ) (العنكبوت:96) .. من لم يباشر حر الهجير في طلب المجد , لم يقل في ظل الشرف .. خلق الإنسان في نصب وكبد .. هناك من يكدح في سبيل نزوة وشهوة .. والعظيم يكدح في سبيل عقيدة ودعوة .. وليس للعابد مستراح إلا تحت ظل شجرة طوبى

قف بالديار فهذه آثارهم *** تبكى الأحبة حسرة وتشوقا

كم قد وقفت بها أسائل مخبرا *** عن أهلها أو صادقا أو مشفقا

فأجابني داعي الهوى في رسمها *** فارقت من تهوى فعز الملتقى

ثانيا : الدعاء الصادق والالتجاء إلى الله جل وتعالى فهو المسئول سبحانه عن أن يقوى إرادتنا .. ويعلى همتنا.. ويرفع درجاتنا .. انه الدعاء

شمر إليه السالكون , وأمه القاصدون , ولحظ إليه العاملون .. فنسألك اللهم أن تجعلنا منهم

ثالثا : اعتراف الشخص بقصور همته , وأنه لابد أن يطورها ويعلو بها.. وهذا أمر أولى ..ثم لابد أن يعتقد أنه قادر على أن يكون من سكان القمم

رابعا : قراءة سير سلف هذه الأمة , أهل الاجتهاد ممن سكنوا القمم .. الذين صان الله بهم هذا الدين .. إنها خير وسيلة لإشعال العزائم , وإثارة الروح الوثابة , وقدح المواهب , وإذكاء العز مات , وتقويم الأخلاق , والتسامي إلى معالي الأمور والترفع عن سفا سفها ,.. إن قراءة سير النبغاء و الصلحاء , والتملي في اجتلاء مناقب الصالحين الربانيين ..خير مهماز لرفع الهمم , وشد العزائم , وسمو المقاصد , وإنارة القلوب , وإخلاص النيات , وتفجير النبوغ والطاقات , والصبر على اجتياز العقبات .. إن أخبار العلماء العاملين , والنبهاء الصالحين , تغرس الفضائل في النفوس.. وتدفعها إلى تحمل الشدائد والمكاره في سبيل الغايات النبيلة والمقاصد الجليلة , وتبعثها إلى التأسي بذوي التضحيات والعز مات , لتسمو إلى أعلى الدرجات واشرف المقامات .. وقد قيل قديما : الحكايات جند من جنود الله عز وجل يثبت الله بها قلوب أوليائه , قال الله تعالى) وَكُلّاً نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ((هود:021) .. قال الإمام ابن الجو زى رحمه الله تعالى (لو قلت انى طالعت عشرين ألف مجلد , كان أكثر , وأنا بعد في الطلب .. فاستفدت بالنظر فيها.. من ملاحظة سير القوم ..وقدر هممهم وحفظهم وعبادتهم وغرائب علومهم .. مالا يعرفه من لم يطالع .. فصرت أستذرى ما الناس فيه .. واحتقر همم الطلاب ولله الحمد) انتهى كلامه رحمه الله

خامسا : مصاحبة بعض من سكن القمم , إذ كل قرين بالمقارن يقتدي .. والنظر في أحواله , وما هو عليه , وكيف يختصر له الزمان اختصارا .. هذا من أعظم البواعث على علو الهمة .. لان البشر قد جبلوا على الغيرة والتنافس ومزاحمة بعضهم بعضا .. وحب المجاراة في طبائع البشر أمر لا ينكر .. فاتخذ من سكان القمم أعوانا , واخلط نفسك مع الأبرار , وطهرها من الفجار , واجتنب الصغار الأخطار.. فالمرء يعرف بقرينه .. فاصحب من يحملك في سيرك إلى الله.. لا من تحمله .. من يعظك بلحظه قبل أن يعظك بلفظه.....(ولا تتخذ بالسير رفقة قاعد *** ودعه فان الشوق يكفيك حاملا)

سادسا : مراجعة جدول أعمالك اليومي ومراعاة الأولويات , الأهم ثم المهم .. وهذا أمر مفيد في باب تطوير الهمة , إذ كلما كان ذلك الجدول بعيدا عن الرتابة والملل .. كان أجدى في معالجة الهمة

سابعا : التنافس والتنازع بين الشخص وهمته , فعلى مريد تطوير همته أن يضيف أعباء وأعمالا يومية لنفسه لم تكن موجودة في برنامج حياته السابق.. بحيث يحدث نوعا من التحدي في داخل نفسه بإنجاز ما تحمله من أعمال جديدة , ويجب أن تكون هذه الإضافة مدروسة بعناية وإحكام حتى لا يصاب الشخص بالإحباط واليأس

ثامنا : العزم على الكمالات , فمن استوى عنده العلم والجهل , أو كان قانعا بحاله وما هو عليه , فكيف تكون له همة أصلا .. قال الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز رحمه الله (إن لي نفسا تواقة .. وإنها لم تعط من الدنيا شيئا إلا تاقت إلى ما هو أفضل منه .. فلما أعطيت مالا أفضل منه في الدنيا , تاقت إلى ما هو أفضل منه يعنى الجنة)

تاسعا : التحول عن البيئة المثبطة .. إن الماء يفسد بقربه من الجيف , وكذا الهواء .. فكيف بأنفاس العصاة !.. .. ألا تنظر إلى فعل المعصية بآبار ثمود بعد آلاف السنين لما مر عليها الصحابة وأرادوا أن يستسقوا منها منعهم الرسول صلى الله عليه وسلم , وأمرهم أن يلقوا بعجينهم إلى النواضح

عاشرا : واقع المسلمين المر .. في تاريخ الأمم كبوات وعثرات وآلام , إلا أن الأمة الحية تنهض من كبوتها.. وتتجاوز آلامها , بل تكون هذه الآلام باعثا لها على العمل والجد والكفاح حتى النصر .. وفى تاريخ الأمة صعود وهبوط .. ضعف الرجال في فترات تاريخية ثم أنجبت الأمة رجالا غيروا مسار التاريخ .. وإذا كان تاريخ الأمة التي فضلها الله تعالى على غيرها من الأمم قد اختل .. فان الحاضر الماثل أمامنا اليوم يدل على مولد الكثيرين الذين يستعدون لحمل راية الإسلام , وتغيير مسار التاريخ من جديد .. إن الأحداث الجسام التي تمر بها الأمة , تبعث الهمة وتوقظ العزائم .. هذا تاريخ الإسلام يحكى أن حالات الضعف والتردي وتسلط الأعداء .. تحرك الأمة لكي تسترد التفكير

السليم , والعمل الجاد الذي ترد به المعتدى , وتستعيد به عزها ومجدها .. في مثل هذه الأحداث تنجب الأمة أبطالا مجاهدين ..وعلماء عاملين .. عن انس رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (مثل أمتي مثل المطر لا يدرى أوله خير أم آخره) رواه الترمذي .. وقال عليه الصلاة والسلام (لا يزال الله يغرس في هذا الدين غرسا يستعملهم في طاعته) رواه ابن ماجه .. ويقول عليه الصلاة والسلام (إن الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها .. وان أمتي سيبلغ ملكها ما زوى لي منها) رواه مسلم

الحادي عشر : الابتعاد عن كل ما من شانه الهبوط بالهمة وتضييعها .. إن كثير من الشباب له رغبة ملحة في أن يكون من سكان القمم , وبعضهم لا يدرى من أين يبدأ .. ولعل الانخراط في إحدى الجمعيات القائمة أو الهيئات المنتشرة أو اللجان المتاحة أو الجمعيات الاغاثية الواسعة .. أو جمعيات البر أو جمعيات تحفيظ القران الكريم .. أو بعض المؤسسات الخيرية أو غيرها .. لهو خير وسيلة لتفريغ طاقات أعداد من الشباب لا يدرون كيف يقضون أوقاتهم .. ولعل الأنسب أن يترك الشاب يختار لنفسه مجالا يبدع فيه ويبرز ويكون عطاؤه من خلاله .. فمن وجد من نفسه انصرافا للعلم وتحصيله فليقبل عليه .. ومن وجد منها ميلا للأعمال الخيرية والاغاثية فليشارك إخوانه .. (وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ( ) البقرة: من الآية (148

وأعلى مطلب تسمو له قلوب سكان القمم هو الجنة) وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ((المطففين:62) ... مطلب يستحق المنافسة .. وافق يستحق السباق .. والذين يتنافسون في شيء من أشياء الأرض , مهما كبر وجل , وارتفع وعظم.. إنما يتنافسون في شيء حقير .. فان قريب .. والدنيا لاتزن عند الله جناح بعوضة هزيلة .. فهون من شانها .. وارفع نفسك عنها ,, إياك إياك أن تكون ممن قال فيهم يحي بن معاذ الرازي رحمه الله (عمل لسراب .. قلب من التقوى خراب .. وذنوب بعدد الرمل والتراب .. ثم تطمع في الكواعب الأتراب .. هيهات أنت سكران بغير شراب .. ما أكملك لو بادرت املك .. ما أجلك لو بادرت أجلك .. ما أقواك لو خالفت هواك .. يا هذا لقد أعظمت المهر وأسأت الخطبة) .. إنها الجنة وقد اشتاق إليها الصالحون من هذه الأمة ممن سكنوا القمم .. فهذا عمير ..الصحابي الجليل في يوم بدر يسمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول قوموا إلى جنة عرضها السماوات والأرض .. يقول عمير يا رسول الله .. جنة عرضها السماوات والأرض .. قال نعم .. فقال بخ بخ .. فقال النبي: ما يحملك على قول بخ بخ .. فقال : لا والله يا رسول الله إلا رجاء أن أكون من أهلها .. فقال : فانك من أهلها .. فقال فاخرج ثمرات في قرنه , فجعل يأكل منهن ثم قال : لان أنا حييت حتى آكل ثمراتي هذه.. إنها لحياة طويلة .. قال فرمى ما كان معه من التمر ثم قاتلهم حتى قتل رضي الله عنه وأرضاه .. هذا نموذج من سكان القمم .. وهذا سيد بنى سلمة عمرو بن الجموح رضي الله عنه , كان رجلا أعرج شديد العرج .. فلما كان يوم احد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : قوموا إلى جنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين .. فقام وهو أعرج فقال : والله انى لأرجوا أن أطأ الجنة بعرجتى هذه .. فقاتل حتى قتل رضي الله عنه .. وهذا خيثمة بن الحارث رضي الله عنه , إستهم يوم بدر مع ابنه سعد .. فخرج سهم سعد .. فقال له أبوه: يا بنى آثرني اليوم .. فقال له سعد : يا أبتى لو كان غير الجنة فعلت .. فخرج سعد إلى بدر فقتل فيها .. ومازال أبوه خيثمة يتطلع إلى الجنة حتى كان يوم أحد , فأتى إلى النبي عليه الصلاة والسلام وقال : يا رسول الله لقد أصبحت مشتاقا إلى مرافقة ابني سعد في الجنة , وقد كبرت سني , ورق عظمى , وأحببت لقاء ربى , فادعوا الله يا رسول الله أن يرزقني الشهادة ومرافقة سعد في الجنة .. فدعا له النبي عليه الصلاة والسلام بذلك .. فقتل في احد شهيدا رضي الله عنه وأرضاه .. يقول الإمام ابن القيم رحمه الله في هذا المطلب العظيم لسكان القمم (لما علم الموفقون ما خلقوا له .. وما أريد بإيجادهم .. رفعوا رؤوسهم فإذا علم الجنة قد رفع لهم .. فشمروا إليه .. وإذا صراطها المستقيم قد وضح لهم .. فاستقاموا عليه .. ورأوا من أعظم الغبن بيع مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .. في أبد لا يزول ولا ينفد .. بصبابة عيش .. إنما هو كأضغاث أحلام .. أو كطيف زار في المنام .. مشوب بالنغص .. ممزوج بالغصص .. إن اضحك قليلا .. أبكى كثيرا .. وان سر يوما .. أحزن شهورا .. آلامه تزيد على لذاته .. وأحزانه أضعاف أضعاف مسراته .. أوله مخاوف .. وآخره متالف .. فيا عجبا من سفيه في صورة حليم .. ومعتوه في متلاف عاقل .. آثر الحظ الفاني الخسيس .. على الحظ الباقي النفيس .. وباع جنة عرضها الأرض والسماوات .. بسجن ضيق بين أرباب العاهات والبليات .. ومساكن طيبة في جنات عدن تجرى من تحتها الأنهار .. بآطار ضيقة آخرها الخراب والبوار .. فوا عجبا لها .. كيف نام طالبها .. وكيف لم يسمح بمهرها خاطبها .. وكيف طاب العيش في هذه الدار بعد سماع أخبارها .. وكيف قر للمشتاق القرار دون معانقة

أبكارها .. وكيف قرت دونها أعين المشتاقين .. وكيف صبرت عنها أنفس الموقنين .. وكيف صدفت عنها قلوب أكثر العالمين .. وبأي شيء تعوضت عنها نفوس المعرضين) انتهى كلامه رحمه الله تعالى .. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (من خاف أدلج.. ومن أدلج بلغ المنزل .. ألا إن سلعة الله غالية ألا إن سلعة الله هي الجنة)

يا سلعة الله لست رخيصة *** بل أنت غالية على الكسلان
يا سلعة الرحمن ليس ينالها *** في الألف إلا واحد لا اثنان
يا سلعة الرحمن ماذا كفؤها *** إلا أولوا التقوى مع الإيمان
يا سلعة الرحمن سوقك كاسد *** بين الأراذل تفلة الحيوان
يا سلعة الرحمن أين المشترى *** فلقد عرضت بأيسر الأثمان
يا سلعة الرحمن هل من خاطب *** فالمهر قبل الموت ذو امكان
يا سلعة الرحمن كيف يصبر *** الخطاب عنك وهم ذوو إيمان
يا سلعة الرحمن لولا أنها *** حجبت بكل مكاره الإنسان
ما كان عنها قط من متخلف *** وتعطلت دار الجزاء الثاني
لكنها حجبت بكل كريهة *** ليصد عنها المبطل المتوانى
وتنالها الهمم التي تسمو *** إلى العلا بمشيئة الرحمن
اتعب ليوم معادك الأدنى تجد *** راحاته يوم المعاد الثاني

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين , ,

.....

أعدها للنشر : د.سيد سليمان

كاتب المقالة : الشيخ - ناصر الأحمد
تاريخ النشر : 31/01/2013
من موقع : قناة نور الحكمة الإلكترونية - صوت علماء الأزهر الشريف بفاقوس
رابط الموقع : WWW.norelhekma.com